أيهـــا الشرق . . !

أيها الشرق ! ياوطنى الكبير ،

أهتف بك فتسبق إلى عينى صور باكية دامية ذليلة ، وتتدفق على ذهنى ذكريات بعضها شجى يزجى الألم حادا عنيفا ، ويذكى الدم حارا مستعرا ، وبعضها حلو يثمل النفوس بالفخر ، ويهز الأعطاف بالاعجاب . .

ولكنك الآن ذليل أيها الشرق ! آه لو استطاع هـذا القلم الضعيف أن ينفث فى نواحيك الايمان ، ويبعث فى جوانبك الأمل ، لكان سعيدا ، أنت ياوطنى مهبط الحضارة ومسقط النور ، ما فى ذلك شك . أنت مجال الأبطال والقوة ، ومراد الحكمة والنبوة ، ومخرج الدعاة والقادة ، هذا حق لا تخلص إليه شبهة ، ولا تنصرف اليه ريبة .

ليقل - كبلنج - إن الشرق شرق والغرب غرب ولا يلتقيان - فلسنا نتوقع من دعاة الاستعمار أقل من هذا . . ولكن الحقيقة تلطم كبلنج وتلزم المكابرين من أمثاله حدود الاقتناع

فان كانت اوربا تفخر بنابليون لأنه عبر الالب وتخطى البرانس ، ونلسن لأنه كسب موقعة أو موقعتين ، وولنجتن لأنه ذبح مليونا أو يزيد ، فان الشرق ليتيه بزغلول لأنه قهر انجلترا بغير السيف والرمح ، وغاندى لأنه هزم انجلترا بغير الحديد والنار ، ومصطفى كمال لأنه دوخ فى ساح الحرب أصحاب الغازات الخانقة والطائرات المحلقة والمدافع الرشاشة . . . ! وابراهيم لأنه طرق أبواب اليونان مرات وعيث بجبل أولمب مهبط الوحى وملعب الأبطال ومستقر الآلهة ! !

وإن كان للغرب أن يفخر بروسو وفولتير وشكسبير وجوت ، وبيرون ، فان الشرق والعالم يفخر بالافغانى ومحمد عبده وابن خلدون والمتنبى وفيلسوف المعرة . الشرق غنى برجاله قوى بأبطاله ، خصب بحضاراته . . . ولكننى بعد هذا ومع هذا لا أستطيع إلا الاعتراف بالحق — وليس ينكر الحق الا الضعاف — والحق أن الشرق كان فتيا فأصابه الكبر ، وكان قويا فأخذه اليأس والخور ، وكان عاملا فجنح إلى الراحة والاستراحة إلى المسالمة . . . هذا هو المنطق الذى يرضى الله والعقل والناس ، والحق إننا نغالى فى تقدير ماضينا ونشغل به عن حاضرنا . وهل أتاك حديث المرأة الصلعاء التى أخطأها الزواج لصلعها فكانت إذا جاءها الخاطب ثم هم بأن ينصرف استوقفته قائلة « ألم تر إلى خالتى إن لها شعرا جميلا ! ! » ، هل تحت وجه الشبه ؟

الشرق محتل كله أو يكاد : تضرب فى نواحيه الخيام الدخيلة ، وترفرف على سواريه الأعلام الغريبة ، وتحلق فى سمائه الطائرات الأجنبية . . . وأهل الشرق نيام ضربت عليهم الغفلة وملكهم اليأس واستبد بهم الخور وانشقت بهم العصا .

يا أبناء الشرق ! إنى أخاف عليكم اليأس أن يدركم فيشل عقولكم ، ويغل أيديكم ويضل سعاكم .

أنا أعرف وأعترف أن الغاية بعيدة ، وأن السبيل قفر وعر ، وأن الشرق ضعيف الحول والحيلة ، وهـذا بعينه مايلقى فى نفسى الجزع ويردنى الى حيرة تشبه أن تكون جنونا لأنى أخاف عليك أيها الشرق أن تلقى عصا الأمل وتغمد سيف العزيمة وترفع الراية البيضاء . . . !

وأخاف عليك ظاهرة أخرى : فى الشرق تنشق العصا وتتفرق الكلمة وتشت الوحدة ، وتتبدد القوافل فى شعاب الجبال فلا تزال كل قافلة تتهادى وحيدة فريدة فى الوهاد والنجاد حتى ينال منها الجهد ، وتشتبه عليها السبل وتنبت بها الأسباب فى صميم الصحراء . . ! والعدو المستشرف يرقب ويغرى ويبتسم ، حتى اذا ضمن تصدع الشمل وتقطع الاسباب انقض فهاجم كل قافلة فى مواضع الضعف منها ، فأطمع الاولى بالرغبة ، وقمع الثانية بالرهبة ، وأغرى الثالثة بالرابعة . . . حتى يستقيم له الامر ويخلو له الطريق ويصفو له الجو . أفليس أجمع للكلمة وأضمن للنصر وأحزم للرأى ، لو تلاقت هذه القوافل كلها فى السهل فضمت شتاتها ولمت شعثها ونظمت نفسها فى سرب طويل قوى ثم سارت على هداء الامل وهداية الايمان . . ؟ ؟

مؤلم هذا الانقسام الذى يشيع فى صفوف المجاهدين فى بلاد العرب وفى مصر وفى الهند ، فى الجزيرة ملكان مسلمان يتحاربان وفى مصر أحزاب تتطاحن . وفى الهند طوائف تجور عن السبيل والغاية والشرق المخلص الصادق لايستطيع أن يشهد هـذا دون أن يضيق به ويأسف له ، ويتمنى على الله أن يكشف عن الشرق هذا البلاء . . .